الخطاب: المفهوم والمصطلح

تمهيد:

يعد مصطلح الخطاب أحد المصطلحات المركزية في الدرس اللساني الحديث، وقد أسال كثيرا من الحبر في ضبط مفهومه، فوق اختلاف كبير بين الباحثين في ماهيته، وهذا راجع إلى الخلفيات المعرفية والعلمية لكل باحث.

أولا–ماهية الخطاب

1–التعريف اللغوي للخطاب

في اللغة العربية، كلمة "خطاب (Discourse) "تأتي من الجذر "خ–ط–ب"، الذي يدل على الكلام والمخاطبة .الفعل "خطب "يعني "تكلم "أو "ناقش"، والمصدر منه "خطاب "أو "خطبة ." يُفهم الخطاب لغويًا على أنه الكلام الموجه إلى شخص أو مجموعة من الأشخاص بهدف التواصل أو الإقناع .يشمل ذلك أي شكل من أشكال الكلام، سواء كان شفهيًا أو مكتوبًا.

2–التعريف الاصطلاحي للخطاب

التعريف الاصطلاحي للخطاب يتجاوز المعنى اللغوي البسيط، ليصبح مفهومًا أكثر تعقيدًا في مجالات مثل **علم اللغة، وعلم الاجتماع، والتحليل السياسي** .بشكل عام، يُعرف الخطاب اصطلاحيًا بأنه **مجموعة من النصوص (الشفوية أو المكتوبة) التي يتم تحليلها ليس فقط من حيث بنيتها اللغوية، بل أيضًا من حيث سياقها الاجتماعي، والثقافي، والتاريخي.**

يعتبر **ميشيل فوكو** أحد أهم المنظرين في مجال **تحليل الخطاب** .يرى فوكو أن الخطاب ليس مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار، بل هو "**نظام من القواعد التاريخية التي تحدد ما يمكن قوله وما لا يمكن قوله.**" ويقول في كتابه نظام الخطاب: " الخطاب ليس مجرد ما يُفكر به الناس، بل هو الشيء الذي يُفكر بهم."

ويركز **هابرماس** على مفهوم "**الفعل التواصلي**" ويعتبره أساسًا للمجتمع العقلاني. يرى أن الخطاب يجب أن يكون حوارًا مفتوحًا يسعى إلى التفاهم المتبادل" ففي كتابه "**نظرية الفعل التواصلي**"، يميز بين الفعل التواصلي الذي يهدف إلى التفاهم، والفعل الاستراتيجي الذي يهدف إلى التأثير والسيطرة.

ويركز **نورمان فيركلاف** وهو من أبرز مؤسسي "**التحليل النقدي للخطاب** على العلاقة بين الخطاب والسلطة والأيديولوجيا. حيث يرى في كتابه **الخطاب والتغيير الاجتماعي**" **أن** "الخطاب يمثل شكلاً من أشكال الممارسة الاجتماعية، وهو في الوقت نفسه يساهم في تشكيل الأيديولوجيا، ويتم تشكيله بها."

في هذا السياق الخطاب ليس مجرد كلام، بل هو **فعل اجتماعي** .إنه يعكس **القيم، والمعتقدات، والسلطة، والعلاقات الاجتماعية** والأيديولوجيا داخل المجتمع. على سبيل المثال، الخطاب السياسي ليس مجرد خطب سياسية، بل هو الطريقة التي تُبنى بها الأفكار حول **السلطة، والدولة، والمواطنة.** ففهم الخطاب يتطلب إعمال العقل والنظر فيما وراء اللغة لفهم السياق الذي أنتج فيه الخطاب.

يمكن تلخيص بعض النقاط الرئيسية لمفهوم الخطاب:

- **الخطاب يتجاوز الجملة الواحدة** :هو وحدة لغوية أكبر من الجملة، مثل الفقرات، والمحادثات، والكتب.
- **الخطاب مرتبط بالسياق** :لا يمكن فهمه بمعزل عن الظروف التي أنتجته.
- **الخطاب يمارس السلطة** :يمكنه أن يؤثر في تفكير الناس، ويشكل المعرفة، ويفرض قيمًا معينة.

ثانيا–الفرق بين الخطاب كـ مفهوم والخطاب كـ مصطلح.

يمكن التمييز بين الخطاب كمفهوم والخطاب كمصطلح من خلال فهم كيفية تطورهما واستخدامهما في مجالات مختلفة.

1–الخطاب بوصفه مصطلحا:

يُشير إلى البنية المعقدة للغة، لا كـ وسيلة تواصل فحسب، بل كـ نظام محدد تاريخياً واجتماعياً . يُعتبر الخطاب أكثر من مجرد الكلمات الموجهة إلى جمهور؛ بل هو ممارسة اجتماعية تشمل إنتاج وتوزيع واستهلاك المعرفة والسلطة .في هذا الإطار، يُستخدم المصطلح لتوصيف أنظمة فكرية وتعبيرية متخصصة، مثل "الخطاب السياسي" و"الخطاب الديني"، والتي تتجاوز مجرد التعبير اللغوي لتشكل الواقع الاجتماعي وتؤثر فيه.

2–الخطاب بوصفه مفهوما:

يُعَدّ **الخطاب** في الأوساط الأكاديمية والتحليلية إطارًا نظريًا معقدًا يتجاوز المعنى السطحي للغة. لا يقتصر الخطاب على كونه مجرد كلمات، بل هو نظام متكامل من الأفكار، والمعتقدات، والقيم، والعلاقات الاجتماعية التي تتشكل وتُعبّر عن نفسها من خلال الممارسات اللغوية.

يعتبر **ميشيل فوكو** من أهم الفلاسفة الذين ساهموا في تطوير **مفهوم الخطاب** بشكل جذري، إذ يرى كتاب "**نظام الخطاب** أن "الخطاب ليس مجرد مجموعة من العلامات... إنه يمثل ممارسات تُشكل بشكل منهجي الأشياء التي نتحدث عنها". إذ يربط فوكو ممارسة السلطة عبر الخطاب، فلا يمكن أن تتسجد السلطة إلا عبره، وكيف يتم استعمال اللغة في هذا الباب عبر مبدأ الانتقاء الذي يقصي نوعا من الخطابات لصالح خطابات أخرى.

التركيز الأساسي على الخطاب ينصب على فهم بنيته العميقة وكيفية **تكوينه للواقع** .يُنظر إليه كقوة فاعلة تُحدد ما يمكن التعبير عنه وما يُستبعد من دائرة القول، وبالتالي يُسهم في تشكيل المعرفة والسلطة داخل المجتمعات.

اما في السياق **الاجتماعي** تستخدم **جوديث بتلر** مفهوم الخطاب لوصف بناء الهوية الاجتماعية. إذ ترى الباحثة في كتابها "مشكلة النوع" أن "النوع الاجتماعي هو أداء يتشكل من خلال تكرار الأفعال الخطابية والمادية، فهي لا ترى النوع الاجتماعي بعدها تجسد بيولوجي، بل هو تأثير لخطاب اجتماعي يبرز في الأفعال اليومية للمجتمع.

هي لا ترى النوع الاجتماعي كحقيقة بيولوجية، بل ك **تأثير لخطاب اجتماعي** يُكرر ويُنفَّذ عبر الأفعال اليومية.

ثالثا-النظريات التي تناولت الخطاب:

1-النظرية البنيوية:

تركز **النظرية البنيوية** على الخطاب بوصفه نظامًا متكاملًا، لا مجرد تجميع لجمل منفصلة. يرى رواد هذا الاتجاه أن الخطاب يمتلك بنية داخلية وقواعد تحكمه، وأن المعنى لا يُستمد من الكلمات منفردة، بل من العلاقات التي تربطها ببعضها البعض ضمن هذا النظام اللغوي.

ووفقًا لما طرحه اللغوي **فرديناند دي سوسير**، فإن المعنى لا يكمن في الكلمة بحد ذاتها، وإنما في شبكة العلاقات والاختلافات التي تُحددها داخل المنظومة اللغوية. وبناءً على ذلك، يتم فهم الخطاب من الداخل، عبر تحليل الروابط البنائية التي تجمع بين عناصره المختلفة.

2-النظرية التداولية:

تتبنى نظرية أفعال الكلام رؤية مفادها أن الخطاب ليس مجرد أداة لوصف العالم، بل هو فعل إنجازي في جوهره. تركز النظرية على كيفية استخدام المتكلم للغة في سياقات محددة لأداء أفعال كلامية متنوعة مثل: الوعد، التهديد، الطلب، أو التأثير.

يُعدّ الفيلسوف جون أوستن أحد أبرز مؤسسي هذه النظرية، حيث طرح في كتابه "كيف ننجز الأشياء بالكلمات "فكرة محورية وهي أن "القول هو فعل في حد ذاته". وبناءً على ذلك، فإن الخطاب لا يقتصر دوره على تمثيل العالم الخارجي، بل يمتد ليشمل القدرة على تغيير سلوك الأفراد وإحداث تعديلات في بنية الواقع.

3-النظرية التفكيكية:

يركز أنصار **النظرية التفكيكية** على أن أي خطاب هو بنية غير مستقرة، وأن معناه مؤجل باستمرار. يهدفون من خلال هذه النظرية إلى تفكيك المعاني الظاهرة للنصوص، وذلك بهدف الكشف عن التناقضات والافتراضات الكامنة بداخلها.

أما المقولة الشهيرة للفيلسوف جاك دريدا "لا شيء خارج النص" فتعني أن كل تجاربنا وأحداثنا لا يمكن فهمها إلا من خلال اللغة والشبكة المعقدة من العلاقات اللغوية والسياقات التي تحيط بنا. بعبارة أخرى، الوصول إلى الحقيقة والواقع يكون دائمًا عبر بوابة اللغة، فلا يمكن إدراكهما بمعزل عنها.